الجزء الثالث — المجلد الرابع والثلاثون

مجلة
المجمع العلمي العربي

١ تموز سنة ١٩٥٩ م — ٢٥ ذي الحجة سنة ١٣٧٨ هـ

ثلاث رحلات

الطهطاوي — الشدياق — كردعلي

اذا بحثنا عن بدء نهضتنا الحديثة فلا مندوحة لنا عن الإشارة الى ثلاث رحلات كان لأصحابها أعمق الأثر في هذه النهضة ، فقد وقفوا على أشياء كثيرة من خصائص الغرب وأخلاق أهله وعاداتهم ومذاهبهم في السياسة والفن والأدب ، فعملوا كتباً أودعوها ما وقفوا عليه وما دهشوا منه فتركت هذه الكتب في آفاقهم آثاراً شتّى ، ولئن اختلفوا بعض الاختلاف في نظراتهم الى الأمور على قدر أمزجتهم وأذواقهم ومداركهم فقد اتفقوا في غاياتهم من رحلاتهم ، فقد كانت غاياتهم منها ايقاظ الشرق من رقدته وحثه على الأخذ بأسباب العلم والحضارة وكان لكل واحد منهم أسلوب خاص في التنبيه والإرشاد .

أمّا الرحلات الثلاث فأصحابها رفاعة رافع الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق ومحمد كردعلي ، وقد وضّح كلٌ منهم في مقدمة رحلته غايته من الرحلة أكمل توضيح .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

خرج الطهطاوي من مصر سنة ١٢٤١ ووضع كتاباً سماه : تخليص الإبريز في تلخيص باريز طبع الطبعة الأولى في بولاق سنة ١٢٥٠ واذا رجعنا إلى مقدمة الكتاب وجدنا فيها ما يدلنا على الغرض من رحلة صاحبه فقد أرسل من قبل والي مصر محمد علي الى باريز في جملة من أرسل : « ليتعلّم العلوم والفنون الموجودة بهذه المدينة البهيّة » هذا ما قاله الطهطاوي ، الاّ أنه كانت له غايات أبعد فصّلها في قول آخر :

« فلما رسم اسمي في جملة المسافرين وعزمت على التوجه أشار عليّ بعض الأقارب والمحبّين لا سيما شيخنا العطّار ، فانه مولع بسماع عجائب الأخبار والاطلاع على غرائب الآثار أن أنبّه على ما يقع من هذه السفرة وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة وأن أقيّده ليكون نافعاً في كشف القناع عن محيّا هذه البقاع .... فما قصّرت في أن قيّدت في سفري رحلة صغيرة نزّهتها عن خلل التساهل والتحامل ويرأتها عن زلل التكاسل والتفاضل ووشحتها ببعض استطرادات نافعة واستظهارات ساطعة وأنطقتها بحث ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرّانية والفنون والصنائع فان كمال ذلك ببلاد الافرنج أمر ثابت شائع والحق أحق أن يتبع ، ولعمر الله إنني مدّة اقامتي بهذه البلاد في حسرة على تمتعها بذلك وخلوّ ممالك الإسلام منه ، وإيّاك أن تجد ما أذكره لك خارجاً عن عادتك فيعسر عليك تصديقه ، فتظنه من باب الهذر والخرافات أو من جنس الإفراط والمبالغات ..

وقد أشهدت الله سبحانه وتعالى على ألاّ أحيد في جميع ما أقوله عن طريق الحق وأن أفشي ما سمح به خاطري من الحكم باستحسان بعض أمور هذه البلاد وعوائدها على حسب ما يقتضيه الحال ومن المعلوم اني لا أستحسن إلاّ ما لم يخالف نصّ الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحيّة . »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وختم مقدمته بقوله :

« وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا الكتاب مقبولاً لدى الخاص والعام وأن يوقظ به من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام من عرب وعجم . »

من هذه المقدمة يتبيّن لنا أن الطهطاوي قد توخّى في رحلته في جملة ما توخّاه من طلب العلوم والفنون حث ديار الإسلام ، عربها وعجمها على الانصراف الى هذه العلوم والفنون وايقاظ أهل هذه الديار من غفلتهم وهذا ما يثبت لنا أن رحلته الى الغرب كانت عاملاً من عوامل نهضتنا الحديثة فقد رمى فيها الى الايقاظ والتنبيه .

ولم تكن هذه الفكرة فكرة الطهطاوي وحده فان الذين فكّروا في أوّل بعثة الى الغرب كانت غايتهم إحياء العمران والعلوم والفنون في بلادهم ، فهم في تفكيرهم هذا وفي إنفاذ هذا التفكير من أعظم الباعثين على النهضة الحديثة وقد وضح الطهطاوي هذه الفكرة في الباب الأول من رحلته فقال :

« ولهذا تنبه المتولّى على بلاد مصر أن يرجع اليها شبابها القديم ويحيي رونقها الرميم ، فمن مبدإ توليته وهو يعالج في مداواة دائها الذي لولاه كان عضالاً ويصلح فسادها الذي قد كاد يكون زواله محالاً . »

ثم أفاض الطهطاوي بعد ذلك في مدح والي مصر والتنبيه على ميله الى العمران ونشر العلوم والفنون والصناعات .

لا أريد التوسع في الكلام على رحلة الطهطاوي وعلى خصائصها في مثل هذا المقام وانما الذي رميت إليه أن أبيّن أن هذه الرحلة كانت عاملاً من عوامل النهضة الحديثة فقد رجع صاحبها الى مصر ونشر كتابه بين ظهراني قومه وقد تضمّن هذا الكتاب ما وقعت عليه عينه في الغرب من أكثر أمور الحياة ، ولا سيّما حرية الرأي فكان لكثير من مشاهداته تأثير في العقول ، فبدأت النهضة الحديثة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واذا فرغنا من مطالعة تخليص الإبريز وانصرفنا الى مطالعة كتابي الشدياق : الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا وجدنا أنّ غاية الشدياق من رحلته الى الغرب لا تختلف كثيراً عن غاية الطهطاوي ، ماذا يقول الشدياق في مقدمة رحلته التي طبعت الطبعة الثانية في قسطنطينية سنة ١٢٩٩ :

« ويعلم الله اني مع كثرة ما شاهدت في تلك البلاد من الغرائب وأدركت فيها من الرغائب كنت أبداً منغّص العيش مكدّره كمن فقد وطره ولزمته معسرة ، لا يروقني نضار ولا نضرة ، ولا نعمة ولا مسرّة ولا طرب ولا لهو ولا حسن ولا زهو لما أني كنت دائم التفكير في خلوّ بلادنا عمّا عندهم من التمدّن والبراعة والتفنن ثم تعرض لي عوارض من السلوان بأن أهل بلادنا قد اختصوا بأخلاق حسان وكرم يغطّي العيوب ويستر ما شان ولا سيّما الغيرة على الحرم وصون العرض عمّا من هذا الصوب يُذمّ ثم أعود الى التفكر في المصالح المدنية والأسباب المعاشية وانتشار المعارف العمومية والى إتقان الصنائع وتعميم الفوائد والمنافع فيجفل ذلك السلوان وأعود الى الأشجان . »

هذا كلام صريح ، فقد رحل الشدياق الى مالطة وفرنسة وانكلترة وقابل بين بلادنا وبلادهم في أبواب التمدّن والعلوم والصناعات فكانت هذه المقابلة تدخل الحزن على قلبه خلوّ بلاده مما اشتملت عليه بلاد الافرنجة ، تكثر المقابلات والموازنات في رحلة الشدياق فهو يقابل بين أخلاق وأخلاق وبين عادات وعادات وبين طبائع وطبائع ، يقابل بين زواج وزواج ، وبين لباس ولباس وبين طعام وطعام فينقد ويحكم ويسخر ولكنه في كل نقده وحكمه وسخريته لا يتوخّى إلاّ الإصلاح والإرشاد ، إصلاح ما اعوجّ من أخلاق بلاده وعاداتها وارشادها الى محاسن الأخلاق والعادات ، لقد نقل الشدياق الى الشرق كثيراً من محاسن الأمور التي رآها في الغرب فكان عنصراً قوياً من عناصر النهضة الحديثة فهو مصلح اجتماعي من أكبر المصلحين ولم يعرف بعدُ مقامه في هذا الإصلاح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حق المعرفة حتى يومنا هذا فلا تزال الظلمات تغطّي على ضيـاء عقله الراجح وأفقه الواسع .

قابل مرّة في رحلته بين بعض أوضاعنا وبعض أوضاع الافرنجة ، تكلم على العلم في بلاد الانكليز فقال :

« غير أن العلم عندهم لا يكون بمعرفة قواعد النحو والصرف أو بنظم قصائد وانما هو مطالعة اللغتين اليونانية واللاتينية ومعرفة أدبها ومعرفة التاريخ والفلسفة والهندسة والرياضيات » .

هذه المقابلات التي كانت تجري خلال رحلته كان يرمي فيها الى إرشاد أهل بلاده الى حقائق الأمور فلم يترك فرصة تمرّ به دون أن ينتهزها لإيقاظ قومه ، كان يتكلم على الوظائف في بلاد الإنكليز وعلى ترتيب أصناف الناس فقال وقد خطرت بباله حالة بلاده :

« فأمّا في بلادنا حرسها الله فان ناظر المدابغ جدير بأن ينظر في جلود بني آدم ويصبغها بلون الدرّة والسوط أو يسبر ما هي عليه من الطراوة والنعومة ، والمحتسب خليق بأن يزن أعمال عباد الله وأموالهم في بيوتهم ويروز ما في عباب صدورهم من الخواطر والأفكار وللحاكم أو للمطران أن يسقط حق المحق لحرف أسقطه في الكلام وللضابط أن يبيّت الناس في مضاجعهم وللشرطي أن يقبض على أي شخص كان ولضابط العسكر أن يخترط سيفه على أي عنق سنحت له وللبطرك أن يحرم أيّ شخص كان من رعيته حتى لا يعود لأحد من أقاربه وأهل بلدته استطاعة على مخاطبته ومبايعته » .

وبعد أن أحصى هذه الأمور كلها التي كانت تجري في عصره ، عصر الظلمات ، بعد أن قابل بينها وبين الأمور التي رآها في الغرب صرخ هذه الصرخة :

« وإلى من المشتكى وأين المصير وأين المجير ، فياليت شعري متى نصير نحن ولد آدم كهؤلاء البشر ومتى نعرف الحقوق الواجبة لنا وعلينا ، أنخال أن معنى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

التمدن هو أن يكون الناس في مدينة وفيها ذئاب وسباع ، كلاً ثم كلاً ، جير أن اجتماع الذئب والخروف في مرعى واحد ليوجب على اليهود أن يؤمنوا بأن المسيح قد جاء » .

فاذا تنبّهت العقول في نهضتنا الحديثة فانها لم تتنبّه إلا بمثل هذه الأفكار التي اشتملت عليها كتب الرحلات وبمثل هذه المقابلات ، فالشدياق كان في مقدمة الذين نبّهوا الناس في نهضتنا .

أمّا كردعلي فقد سمّى رحلته : غرائب الغرب ، قال في مقدمته :

« هذه فصول ومقالات ، بل آهات وتأوهات ، كتبتها في وصف معالم الغرب وما لقيته فيه وقد زرته ثلاث مرات .... وأنا على مثل اليقين بأنها لا تحمل في مطاويها في تلك المدنية الساحرة إلاّ بقدر ما تصل اليه يد عابر سبيل ويتفطن لها النزيل والدخيل » .

لاشك في أن كلمة آهات وتأوهات تدلنا على أن كردعلي بهره ما رأى من مدنية الغرب فتحسّر على خلوّ بلاده من هذه المدنية ، ولئن لم يوضح في هذه المقدمة غايته من الرحلة فقد وضّحها في أول فصل من فصول كتابه إذ قال :

« كان من أعظم أماني النفس منذ بضع سنين أن أرحل الى أوربا رحلة علمية ، أقضي فيها ردحاً من الدهر للتوفّر على دراسة حضارة الغرب في منبعثها واستطلاع طلع المعاهد التي منها نشأ المخترعون والمكتشفون والفلاسفة المنزّهون والعلماء العاملون والساسة المستعمرون والقادة والغازون والتجّار والصنّاع والزرّاع والماليون وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهيولاها » .

غاية كردعلي في هذا الكلام واضحة فانّ همّه التوفّر على دراسة حضارة الغرب ولكن ما هو غرضه من هذه الدراسة ، إن هو إلاّ الإصلاح ، شأنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في ذلك شأن الشدياق من قبله الذي سبقه الى الغرب ، لقد كثرت أوهاته وتأوهاته في الغرب ، من ذلك قوله :

« ومن الأسف العظيم أننا لو أحصينا عدد ما يصدر من جميع الجرائد والمجلات العربية والتركية والفارسية في البلاد المصرية والعثمانية والايرانية لا يبلغ بكميته قدر ما تطبع كلّ يوم جريدة : البتي مارسيلية ، احدى جرائد ولايات فرنسا ، وعلى هذه النسبة قس ولا تخف درجة ارتقائنا وارتقاء الفرنسيس وسجّل علينا بالفقر المدقع في كل شيء ، ولا سيّما في الأمور العقلية » .

شرع كرد علي في المقابلات على نحو ما فعله الشدياق في رحلته ، فهو يقابل بين انتشار الصحافة في مصر وتركية وايران وبين انتشارها في مدينة واحدة من مدن فرنسة ويستخرج من هذه المقابلة درجة ارتقاء بلاده وارتقاء الفرنسيين وتؤدّي به هذه المقابلة الى الحكم بانحطاط الشرق في كل شيء ، ولا سيّما في الأمور العقلية ، ليس غرضنا في هذا المقال المناقشة والمجادلة ، فقد يخطئ كرد علي في حكمه ، ان بلاد الشرق التي ذكرها كانت في أوّل نهضتها ولذلك فان عدد صحافتها قليل ، أمّا فرنسة فقد كانت في أيّام رحلته تذوق نعمة الحرية من زمن بعيد ، فلا تصح المقابلة بين بلاد في أوّل نهضتها وبين بلاد في عزّ النهضة ، غير أن كرد علي لم يتحسّر هذا التحسّر إلا ليحمل بلاده على الأخذ بأسباب حضارة الغرب ، فهو لم يرحل الى الغرب إلاّ ليعود الى بلاده وينفخ فيها روح الاقتباس .

لقد كثرت دهشات كرد علي في رحلته ، دهش من حضارة الغرب حتى كاد يحسبها من باب الحلم والخيال ، ولا غرابة في ذلك فقد خرج من بلاد كلها ظلمات ، الى بلاد يستفيض فيها النور ، فقابل على حين لا تصحّ المقابلة في هذا الوجه ، ولكنه لم يقابل إلاّ ليحضّ أبناء وطنه على الاقتباس من مدنية الغرب على نحو ما أشرت إليه ، ولا بدّ من الإشارة في هذا المقام الى أن فرنسة التي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

دهش كرد علي من حضارتها في رحلته اليها من نصف قرن كانت سمعتها تملأ الأرض ، فلم يكن الناس يعرفون عنها في تلك الأيام ما عرفوه عنها في هذا العصر من أساليبها في الاستعمار .

ليس هذا موضوعنا ، لنرجع الى لبّ الموضوع ، لقد كان لاتصال الشرق بالغرب أثر قوي في نهضتنا الحديثة ، كان كرد علي يرى ما يرى من سياسة الغرب ومذاهبه في الاجتماع والعلم والصناعة والزراعة والاقتصاد وغير ذلك من مظاهر الحياة فيدرس ويختبر ثم يستنبط من دراسته واختباره عبرة صالحة لينفع بها قومه ومجتمعه ، فالكتّاب الثلاثة الذين أشرنا إليهم في هذا المقال غرضهم من رحلتهم الرجوع بخواطر وأفكار تنهض ببلادهم ، وكما تحسّر الشدياق على تأخر بلاده فكذلك تحسّر كرد علي :

« فيارب ! ما هذه الروح التي تجرّد منها جسم الشرق وصرتْ في عظام الغرب وشرايينه ، فأتى أهله بالعظائم ونحن بقينا جامدين ، مبهوتين ، منحلّين ، متضائلين ! »

ولئن كان هؤلاء الكتّاب الثلاثة مادّة خصبة من موادّ نهضتنا الحديثة بسبب رحلاتهم لقد كان لكل واحد منهم أسلوب خاص في النظر الى حضارة الغرب والحكم عليها ودرجة الاستفادة منها والاقتباس عنها ، فالطهطاوي غلبت عليه نزعة دينية ، فقد تمسّك باسلامه فلم يستحسن من أمور الافرنجة إلا ما كان الاسلام يسمح باستحسانه والشدياق غلبت عليه السخرية فهو يسخر بالغرب اذا رأى ما يحمل على السخرية ويعظّم منه ما يستوجب التعظيم وأمّا كرد علي فقد بلغت دهشته من حضارة الغرب كل مبلغ بحيث كاد لا يرى فيها إلاّ حسنات ، وكيف كان الأمر فان هؤلاء الأئمة الثلاثة كانوا في مقدمة من بنوا نهضتنا الحديثة ، فقد نقلوا الى الشرق ما وقفوا عليه من كثير من أمور الغرب في كل باب من الأبواب ، فكان لرحلاتهم انعكاس على عقول أهل البلاد .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net